لا اكراه في الدين

<"xml encoding="UTF-8?>

من الطبيعي أن يسعى أصحاب كل دين لنشر دينهم والتبشير بعقيدتهم ليغطي أكبر مساحة ممكنة من أبناء البشر.

فما داموا يعتقدون الصواب والحق في دينهم فسيكونون مندفعين لدعوة الناس إليه كما أن وفاء وإخلاص كل شخص لدينه يجعله متحمسا للتبشير به، ولأن الدين يصبح جزءا هاما من ذاتية الإنسان وشخصيته فأي تقدم أو مكسب للدين يعتبره الإنسان تقدما ومكسبا ذاتيا وشخصيا.
بالإضافة إلى ذلك فإن بعض الأديان توجه أبناءها ومعتنقيها للعمل من أجل نشرها واقناع الآخرين بها، كما هو شأن الإسلام مثلا الذي يقول على لسان نبيه محمد: «وأيم الله لان يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس».
بالطبع هناك بعض الديانات تحصر نفسها في عرق معين وتغلق أبواب دعوتها على من لم ينحدر من تلك العروق كما ينقل عن المجوسيين الزرادشتيين الذين يحرمون على أي إنسان لم يولد زرادشتيا أن يعتنق دينهم رغم اعتقادهم بأفضلية دينهم على سائر الأديان ولذلك أشرف دينهم على الانقراض حيث لا يزيد عدد أتباعه حاليا على (120) ألف مجوسي في العالم.
ولكن كيف تكون الدعوة إلى الدين؟
إن الطريق الصحيح والمشروع هو محاولة إقناع الآخرين والتأثير على نفوسهم باتجاه الدين، ولكن البعض قد يستخدم القوة والعنف لفرض الدين الذي يؤمن به على الآخرين، وهذا ناتج عن الجهل أو روح التسلط والظلم.
فمن يفرض دينه على الناس بالقوة والقهر إنما يعترف بفشل عقيدته وعجزها عن استقطاب الناس واقناعهم، أو انه يستغل الدين كستار وغطاء لعدوانه وتسلطه على الناس، وكم عانت البشرية وتحملت المصائب والمآسي في حروب وصراعات دامية تحت شعارات دينية وفكرية.
ففي العصور الوسطى مثلا رزحت الشعوب الأوروبية في ظل القمع والإرهاب باسم الكنيسة حيث سن الملك الفرنسي (شارلمان) قانونا يقضي بإعدام كل من يرفض أن يتنصر، ولما قاد حملته القاسية على السكسونيين والجرمان اعلن ان غايته إنما هي تنصيرهم.

ولمحاكم التفتيش التي أنشأتها الكنيسة في تلك العصور سمعة سيئة وسجل قاتم مظلم، فقد اجتهدت في فرض آراء الكنيسة على الناس باسم الدين، والتنكيل بكل من يرفض أو يعارض شيئا من تلك الآراء، فنصبت المشانق وأشعلت النيران لاحراق المخالفين، ويقدر ان من عاقبتهم هذه المحاكم يبلغ عددهم (300.000)،احرق منهم (32000) أحياء كان منهم العالم الطبيعي المعروف (برونو)، نقمت منه الكنيسة آراء من اشدها قوله بتعدد العوالم، وحكمت عليه بالقتل، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه وذلك يعني أن يحرق حيا، وكذلك كان، وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير غاليلو (galilio) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس.

وحينما جاء الإسلام أعلن موقفه الواضح والصريح من حرية الاعتقاد واختيار الدين، وارسى القرآن الحكيم مبدأ الحرية الدينية الفكرية في قوله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... ﴾ 1.

وكانت المسيحية - آخر الديانات قبل الإسلام- قد فرضت فرضا بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التي زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعا وحبا! ولم تقصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا في المسيحية، بل إنها ظلت تتناول في ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذهب الدولة وخالفوها في بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح!

فلما جاء الإسلام عقب ذلك جاء يعلن - من أول ما يعلن- هذا المبدأ العظيم الكبير: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... ﴾ 1.

وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه.. وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني.

والإسلام - وهو أرقى تصور للوجود وللحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء- هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين، وهو الذي يبين لاصحابه قبل سواهم انهم ممنوعون من إكره الناس على هذا الدين.. والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾ 1 نفي الجنس كما يقول النحويون.. أي نفي جنس الإكراه، نفي كونه ابتداء فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع، وليس مجرد نهي عن مزاولته، والنهي في صورة النفي- والنفي للجنس- أعمق إيقاعا وآكد دلالة.

والآية الكريمة ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾ 1 على وضوحها وصراحتها ليست هي المورد الوحيد لإعلان الحرية الدينية وتأكيدها في القرآن الحكيم، بل هناك العديد من الآيات الشريفة التي تعالج موضوع حرية العقيدة والفكر من مختلف الجوانب والأبعاد.

فالإنسان في نظر القرآن مسؤول أمام الله عما يصدر منه، يقول تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ 2 ويقول تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ 3.

والأنبياء وظيفتهم التبليغ والتذكير، ولو ان الله تعالى يريد الطاعة من الناس بالقسر لكان سهلا ويسيرا على قدرته يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ 4.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ 5.

ويقول تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴾ 6.

ويقول تعالى: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ 7.

وآيات عديدة كثيرة في القرآن الحكيم تشكل منظومة كاملة حول حرية الإنسان في هذه الحياة وما الآية الكريمة ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾ 1 إلا الخلاصة والعنوان لهذه المنظومة الهامة الخطيرة.

وننقل ما قاله أحد الغربيين في هذا المجال، يقول lane poole انه في الوقت الذي كان التعصب الديني قد بلغ

مداه جاء الإسلام ليهتف ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ 8 وكانت هذه مفاجأة للمجتمع البشري الذي لم يكن يعرف حرية التدين وربما لم يعرفها حتى الآن، وسار محمد على هذا المنوال مسيرة لم تعرف التردد9.

_____

1. a. b. c. d. e القران الكريم: سورة البقرة (2)، الآية: 256، الصفحة: 42.
2. القران الكريم: سورة الانسان (76)، الآية: 3، الصفحة: 578.
3. القران الكريم: سورة البلد (90)، الآية: 10، الصفحة: 594.
4. القران الكريم: سورة يونس (10)، الآية: 99، الصفحة: 220.
5. القران الكريم: سورة الغاشية (88)، الآية: 21 و 22، الصفحة: 592.
6. القران الكريم: سورة الكهف (18)، الآية: 29، الصفحة: 297.
7. القران الكريم: سورة ق (50)، الآية: 45، الصفحة: 520.
8. القران الكريم: سورة الكافرون (109)، الآية: 6، الصفحة: 603.
9. نقلا عن الموقع الرسمي لمساحة الشيخ حسن الصفار حفظه الله_ صحيفة اليوم 9 / 9 / 2003م.